

الهوية المفتوحة والمصائر المشتركة

أمين معلوف: لا أعرف إلى متى سيتظاهر اللبنانيون ولا ما هو مستقبل النظام اللبناني



أمين معلوف: عشت في فرنسا منذ أربعين عاماً وما زلت لبنانياً (غرافيك «الجديد»)

■ الجديد: في ظل ما يحدث اليوم مع التطرف الإسلامي والعنف، فإن معظم الناس يجدون صعوبة في تصديق وجود حقبة مثل تلك التي يصفها لبنان، بأنها فترة تعايش بين الأديان والثقافات المختلفة بشكل متناغم وسلمي. ما هي الظروف التي أتاحت مثل هذا التعايش في ذلك الوقت، والتي لا يمكن أن نتاح اليوم؟

■ أمين معلوف: إنه سؤال رائع، ليس من السهل الإجابة عليه. بيروت التي عرفتها حتى الستينات من القرن الماضي كانت تتميز بالتعايش بشكل متناغم بين الناس من مختلف الجهات والمعتقدات. أعتقد أن من الممكن استعادة طريقة العيش هذه، وأعتقد أنه لا ينبغي التخلي عن هذه الفكرة. نعم، يمكن أن نتمزق بفقرات صعبة، لكن ليس بالضرورة أن تستمر هذه الفترات إلى الأبد. قد يواجه العالم العربي تحغيرات. يجب أن نحاول تغيير الأشياء بطريقة تساهم لنا بالعيش معاً.

■ الجديد: إنه لأمر مخيف أن تفكر في تحطم العالم العربي. هل لديك ثقة في الشباب لتصبح أخطاء الماضي وهل ترى ثمة تغيير في الأفق؟

■ أمين معلوف: يجب أن يدرك الشباب الحاجة إلى التغيير. الفرق بين أجيالنا والأجيال الجديدة هو أن الشباب لديهم إمكانية الوصول إلى جميع الوسائل لتنفيذ هذه التغييرات. أنا متفائل حيال ذلك. نعم التغييرات ممكنة.

■ الجديد: سؤال آخر من وحي وجودك الآن معنا في مدريد: ما هو الدور الذي يمكن لإسبانيا أن تلعبه في العلاقة مع العالم العربي؟

■ أمين معلوف: تتميز إسبانيا بأنها تتمتع بعلاقات قديمة وعميقة جداً مع العالم العربي. في الوقت نفسه، لا يوجد صراع حقيقي كما كان يحدث مع القوى الاستعمارية القديمة. لم تاتي إسبانيا إلى المنطقة بقوة استعمارية، لذا فمن السهل جداً على الدول غير الاستعمارية كإسبانيا أن تلعب دوراً وسيطاً بين العالم العربي وأوروبا. طبعاً، لأن المشاكل الحقيقية التي تعاني منها الدول هي، أساساً، مشاكل ذات طبيعة اقتصادية واجتماعية. القضية الاقتصادية والاجتماعية مهمة، ولكن هناك أيضاً قضايا أخرى تؤثر على الكرامة والهوية. لا يمكنك حقاً فصل هذه القضايا المختلفة عن بعضها البعض، إنها حزمة قضايا قائمة بذاتها.

■ أمين معلوف: نحن نتحدث عن شيئين مختلفين. لا أعتقد أن أي حركة دينية يجب أن تلعب دوراً لصالح الديمقراطية أو ضدّها. أعتقد أنه يمكن للشعوب أن تكون ديمقراطية، وأن يكون لدى المجتمع نظام قائم على الانتخابات، وأيضاً يمكن لهذا الشعب في الوقت نفسه أن يكون لديه المعتقدات الدينية التي يريدها. لا أؤمن بأي نوع من التوافق أو التعارض بين الدين والنظام السياسي، لأنهما كيانان مستقلان.

ولهذا السبب فإن ما يحدث اليوم في تونس يثير الدهشة، حتى أن التونسيين أنفسهم مندهشون. الرئيس الجديد الذي تم انتخابه، قيس سعيد، غريب على هذا العالم. الناس لا يعرفون جيداً القرارات التي سيتخذها كرئيس. أعتقد أن الوضع في تونس صحي، وأنه من الأفضل لهم إجراء الانتخابات، وانتخاب مرشحين من غير المهنيين السياسيين. نأمل الأفضل لهذا البلد.

العرب وإيران

■ الجديد: من أجل استكمال صورة المنطقة، من الضروري مراعاة التوتر في منطقة الخليج. ما هو تأثير النزاعات بين دول المنطقة على الشعوب في السعودية والإمارات وإيران وسوريا وتركيا، إلخ؟

■ أمين معلوف: اعتماد الجميع على الاعتقاد بأن كل ما يحدث في منطقة الخليج سيؤثر على بقية العالم، لأن هذه المنطقة تعتبر قلب المخزون النفطي العالمي. ومؤخراً شهدنا حادثة الهجوم على منشآت نفطية، وكنيجة لذلك توقف نصف إنتاج السعودية، أكبر دولة مصدرة للنفط في العالم، ولم يحدث شيء. لم تكن هناك أزمات كبيرة، حتى أن أسعار النفط لم تشهد ارتفاعاً كبيراً على المدى البعيد، وإنما فقط في الأيام التي تلت الواقعة توترت صورة الأسعار. هناك شيء ما يحدث، لكن من الواضح أن الأزمة في الخليج لا تؤثر على بقية العالم كما تصورنا.

ما يحدث اليوم هو صراع بين مختلف الدول. بالتأكيد إيران قوة إقليمية لها تأثير كبير على العديد من الدول المجاورة لها -العراق وإيران وسوريا ولبنان وفلسطين واليمن- ولا يبق منافسوها في المنطقة على نفس المستوى. فالسعودية دولة غنية، لكن ليس لها التأثير نفسه، وجيشها ليس على المستوى الكافي. تعد إيران طرفاً مهماً تقليدياً، لذلك إذا انسحبت الولايات المتحدة من المنطقة، والذي يبدو أنه أمر يمكن أن يحدث اليوم، إذ ذاك يمكن أن يحصل الإيرانيون على نفوذ أكبر في المنطقة. ومع ذلك، يخلل الاقتصاد نقطة ضعفهم، لأنهم عرضة للحظر والعقوبات، وهذه كان لها تأثير سلبي عليهم في الآونة الأخيرة.

متى سيستمر، لأن النظام السياسي في لبنان، على الرغم من ممارساته الفاسدة، إلا أنه نظام قوي ومترسخ للغاية، لدرجة يصعب معها إزالته أو الإطاحة به. لا أعرف ما الذي سيقدر المحتجون العديد من الدراسات التي أجريت على عصور ما قبل التاريخ والتي تسجل معدلًا للوفيات بسبب العنف أعلى مما هي عليه في الوقت الحاضر. ومع ذلك، لا ينبغي أن يكون لدينا شعور زائف بالأمان لإقناع أنفسنا بأن كل شيء يسير على ما يرام، لأننا اليوم لا نمتلك نفس المطالبات، ولا يمكننا الاعتماد على انخفاض عدد الأشخاص الذين يموتون بعنف. الأمر هنا يتعلق بمعرفة ما إذا كنا نستخدم القوة التي نمتلكها بشكل جيد، وما إذا كنا نتحرك بشكل صحيح نحو نماذج متطورة. لا ينبغي لنا أن نسكت ضمائرنا بمنتهى البساطة.

السودان، الجزائر، العراق

■ الجديد: هناك وضع آخر مشابه يحدث في الجزائر، في ما يسمى بالحراك الشعبي. هل تعتقد أن الشعب الجزائري سيحصل في النهاية على مطالبه بإقامة ديمقراطية حرة؟

■ أمين معلوف: ليس فقط الجزائر التي تمزق بشيء من هذا القبيل. كان هناك عدد كبير من المواقف المثيرة للاهتمام في الأشهر الأخيرة حدثت في دول أخرى، كما في السودان، حيث أدى الاحتجاج إلى عمل تغيير حقيقي. لا أعرف ما الذي سيحدث في المستقبل، ولكن في الوقت الحالي، تم انتخاب حكومة مقبولة من قبل الشعب السوداني على ما يبدو، ولديها منظور جديد حول المستقبل، لذلك سيتعين علينا أن ننظر ونراقب.

وبالمثل، تتكرر الوقائع نفسها في العراق، رغم أن الاحتجاجات في هذه الدولة كانت أكثر عنفاً، وقد نتجت من انعدام الثقة في النظام السياسي. الوضع في العراق يشبه بشكل ما الوضع في لبنان، لأنه على الرغم من أن النظام السياسي في العراق ليس قوياً بالدرجة الكافية، إلا أنه من الصعب استبداله، لأنه يقوم على التوازن بين مختلف الفصائل في البلاد. من الصعب للغاية التحول عن هذا النظام، وحتى الآن لم يحدث أي تغيير جذري.

أما بالنسبة إلى الجزائر، فالوضع يبدو غريباً بعض الشيء. فالناس في الشوارع منذ عدة أشهر، ورغم ذلك، تبدو المظاهرات هادئة ومسؤولة. الغريب في الأمر أن المظاهرين لم يقدموا بدائل بعد، ويرغمون أنهم لا يريدون هذا النظام السياسي المليء بالمافيا والفساد. وعلى الرغم من نجاحهم في إقالة بعض أفراد السلطة، إلا أنهم ليس لديهم قادة سياسيين يمكنهم تحمل المسؤولية وتنفيذ التغيير بانفسهم.

يرفض المظاهرون إجراء انتخابات، لأنهم يعتقدون أن المرشحين الذين سيخوضون الانتخابات يتنصتون إلى النظام القديم. لذلك، يجب على الأشخاص الذين يحتجون تعيين مرشحينهم، لا أعرف إلى أين سيؤدي بهم هذا الطريق في نهاية المطاف، لكن ما أعتقد أنه من الصحي للغاية رؤية ردود الأفعال هذه.

شيئان مختلفان

■ الجديد: لذا، يمكن أن يكون المثال هنا هو تونس. لكن هل التعايش بين الديمقراطية والإسلام ممكن؟

■ أمين معلوف: يدور الأمر هنا حول قضيتين. في المقام الأول، الفكرة الأولى التي تم تطويرها في غضون السنوات الأخيرة، مفادها أننا نعيش في وقت أقل عنفاً، وهذا صحيح. وهي تستند إلى العديد من الدراسات التي أجريت على عصور ما قبل التاريخ والتي تسجل معدلًا للوفيات بسبب العنف أعلى مما هي عليه في الوقت الحاضر. ومع ذلك، لا ينبغي أن يكون لدينا شعور زائف بالأمان لإقناع أنفسنا بأن كل شيء يسير على ما يرام، لأننا اليوم لا نمتلك نفس المطالبات، ولا يمكننا الاعتماد على انخفاض عدد الأشخاص الذين يموتون بعنف. الأمر هنا يتعلق بمعرفة ما إذا كنا نستخدم القوة التي نمتلكها بشكل جيد، وما إذا كنا نتحرك بشكل صحيح نحو نماذج متطورة. لا ينبغي لنا أن نسكت ضمائرنا بمنتهى البساطة.

ثانياً، هناك قضية عدم المساواة. وأنا أوافق أن التمييز انخفض على مدى فترة من التاريخ، وفقاً لدراسات الولايات المتحدة. ومنذ بداية الثلاثينات من القرن الماضي في عهد الرئيس الأمريكي فرانكلين روزفلت انخفضت معدلات التمييز وعدم المساواة. واستمرت هذه الممارسات حتى سبعينات القرن الماضي وطلع الثمانينات منه. ولكن في السنوات الأخيرة، اختلف الأمر وبدأت معدلات عدم المساواة في التصاعد مرة أخرى. وكما ذكرت سابقاً، لا يمكننا مقارنة أنفسنا بالعصور الماضية. لذلك يجب أن نظل متيقظين. نحن نتجرف في تيار تقادم مبادئ عدم المساواة. وأصبح مبدأ المساواة، الذي كان مقدساً لسنوات عديدة، الآن موضع تساؤل. نشاهد اليوم العديد من الشخصيات العامة التي ينمو وضعها الاقتصادي يومياً بشكل غير مسبوق.

مسألة اللامساواة

■ الجديد: أنت تلاحظ أننا على الرغم من امتلاكنا جميع الوسائل المتاحة للتصرف بشكل صحيح، فإننا نصير على التصرف بطريقة خاطئة ومضللة. ومع ذلك، وفقاً للعديد من مصادر الدراسة الأخيرة لك، يمكن الاستنتاج أننا نعيش في أعدل وقت في التاريخ. فاليابان التي يقدمها برانكو ميلانوفيتش في كتابه "عولة اللامساواة" أن مستوى عدم المساواة الاجتماعية في العالم قد انخفض إلى حد كبير. ليست هذه البيانات سبباً مقنعاً للتفاؤل؟

تظاهرات اللبنانيين

■ الجديد: السخط والغضب يعمران شوارع لبنان، موطنك الأصلي، ماذا يمكنك أن تخبرنا عن الوضع الحالي؟

■ أمين معلوف: انطلقت المظاهرات منذ فترة طويلة بسبب الصعوبات التي يواجهها اللبنانيون في العيش بشكل أساسي. حيث على مدى عدة سنوات، هناك انقطاع في التيار الكهربائي بشكل متكرر، وفي بعض الأحيان هناك نقص في المنتجات الأساسية مثل الخبز والأدوية. وحتى أن هناك صعوبة في الحصول على مياه الشرب.

في لبنان، يعاني الناس كثيراً من هذا الوضع. وفي الأسابيع الأخيرة، تسبب فرض ضريبة جديدة على استخدام تطبيق التواصل "واتساب" في تاجيح غضب جماعي أدى إلى خروج الناس إلى الشوارع للاحتجاج. لا أعرف إلى أين سيمضي هذا التظاهر أو إلى

الكاتب اللبناني، أمين معلوف، (70 عاماً)، يبحث المهتمين برأيه على التزام الحكمة والشفافية في المواقف والسياسات، لا سيما وأن الأمر أصبح الآن دقيقاً وحاسماً، محذراً من أن الإنسانية في لحظتنا الراهنة تسير نحو الغرق. ويدعو معلوف الأمم والثقافات إلى تحمل المسؤولية الجماعية لإيجاد الحلول تجنباً لسوء المصير. يعرض معلوف هذه القضية في كتابه الأخير "غرق الحضارات" الذي قدمه للقاء يوم الأربعاء 23 من أكتوبر في مدريد. في مؤسسه "البيت العربي"، لم يكن هناك مكان متاح لكل من شارك في حدث ترك بصماته على تأملات كاتب تميز بفكر نير ومعرفة عميقة بالواقع الحقيقي للدول العربية. اسم أمين معلوف محفور في تاريخ الثقافة الفرانكوفونية. وهو يعتبر واحداً من أكثر الأصوات نفوذاً في المجال الثقافي في العالم العربي من خلال مجموعة من أعماله البحثية مثل "الحراب الصليبية كما رآها العرب" و"الهويات القاتلة"، وأعماله الروائية "ليون الأفريقي" و"سمرقند" و"حدائق النور" و"صخرة طانيوس" و"سلاطيم الشرق" وغيرها. جرى الاعتراف بعمله كروائي على الصعيد العالمي، وقد فازت روايته "صخرة طانيوس" بجائزة غونكور في عام 1993. وفي عام 2010، تم الاعتراف بحياته المهنية الطويلة من خلال منحه جائزة أميرة أستورياس. قبل ساعات قليلة من عرض قدم خلاله عمله الجديد في مدريد، استقبل أمين معلوف فريق موقع "أطيار" للتداول معه في الأسباب التي يمكن أن تقود سفينة الإنسانية إلى الغرق.

■ الجديد: هل تشعر بالتفاؤل بين حاضرتنا وما نسميه مستقبلنا؟

■ أمين معلوف: ليس في وسعي أن أقول إنني متشائم. أعتقد أن هناك مشاكل خطيرة يجب أن نكون على دراية بها ونحن بحاجة إلى حلها. لا يمكننا القول أنه لا توجد حلول، لأن مسؤوليتنا هي إصلاح هذا العالم. علينا أن نتعاضد معاً، وعلينا أن نبني حياتنا المشتركة على أرض صلبة، ونحن بحاجة إلى إيجاد حلول. ولا نأمل أن اليأس والتشاؤم أحد هذه الحلول.

الناس سواسية

■ الجديد: عشت في دول عربية مختلفة ذات غالبية مسلمة. هل تعتقد أن هذه الدول الإسلامية تدرك حقاً الحاجة إلى مواجهة تحديات الحداثة؟ هل حقيقة أنه لم يتم حتى الآن تصميم نظام سياسي ملائم للعصر الحالي ما يجعلنا نعتقد أن الإسلام يتعارض مع العقلانية العلمانية للثقافة الحديثة؟

■ أمين معلوف: اهتمامات الناس هي نفسها في بيروت أو الجزائر أو مدريد أو بوغوتا. يسأل الناس عن الشيء نفسه، لديهم التطلعات العميقة نفسها. يريدون أن يعيشوا حياة أفضل، وأن يكون لديهم المزيد من الكرامة، وأن يكونوا في بيئة تسمح لهم بتطوير ملكاتهم الشخصية. أنا مقتنع بأنه لا توجد اختلافات كثيرة بين تطلعات العالم العربي وتطلعات العالم الغربي. لا يوجد أي تعارض، على الرغم من أن التاريخ عرف أزمات ظهرت فيها حضارات أفضل من غيرها. ومع ذلك، يتغير العالم اليوم بشكل ملحوظ، إنما الهدف النهائي هو إرادة الناس ونزوعهم لتحسين حياتهم.

الخوف من الآخر

■ الجديد: دافعت دائماً عن الحاجة إلى بناء الجسور بين الثقافات، وخاصة بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط. هل تعتقد أن هذا ممكن في ظل هذا العصر الذي تزدهر فيه القومية وكراهية الأجسورة والبعصرية والفردية؟ هل هذا ممكن؟

■ أمين معلوف: أعتقد أنه عندما تبرز مظاهر الشعبوية وكراهية الأجانب والبعصرية، فغالباً ما يكون هناك سبب، ومن الضروري معالجة هذه القضية. عندما يكون لدى الشخص سلوك يتسم برهاب الأجانب والبعصرية فهناك حتماً خوف من شيء ما. ليس من الضروري أن تقول ببساطة "لا تخف"، بل من الضروري محاولة فهم سبب خوفهم

